دراسة تحليلية لخطب البابا أربان الثاني في مجمع كليرمون

(١٨ - ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م)

دكتور
حسن عبد الوهاب حسين
أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

منذ بدايات القرن الماضى احتلت كتابات دانا مونرو Dana C. Muro أهمية خاصة فيما يتعلق بدراسة مصادر الحروب الصليبية. حيث قدم للباحثين دراسات هامة عن خطابات الصليبيين من مصادرها الأصلية، بالإضافة إلى مقاله الهام عن خطبة البابا أربان فى كليرمون ١٠٩٥.

«The Speech of Pope Urban II at Clermont, 1095»

ومنذ نشر مقالته فى عام ١٩٠٦م، تتابعت دراسات المؤرخين الحديثين عن البابا أربان ومجمع كليرمون. ومن أبرزها مقالات ألفونسو بيكير Alfons Becker وكودرى Cowdrey وروبرت سومرفيل Robert Somerville ورودولف هيستاند Rodulf Hiestand ومايير Mayer وأخيراً ريلى سميث Rie-ly-Smith. أما مدرستنا العربية فقد ساهمت حركة الترجمة للمصادر اللاتينية إلى العربية، والدراسات المتعمقة لعلماء التاريخ الوسيط من المصريين والعرب فى إثراء هذه الدراسة المتواضعة.

وعلى الرغم من هذه الدراسات السابقة إلا أن هناك ثمة عوامل دفعت الباحث لدراسة هذا الموضوع. ومن بينها نشر وثائق جديدة ألقت الضوء على جوانب جديدة لهذه الخطب. يضاف إلى ذلك اختلاف آراء المؤرخين من قدامى وحديثين حول نصوص الخطب الثلاث التى أوردتها المصادر المعاصرة. وأخيراً فقد عالج الباحث تساؤلاً هاماً حول دافع البابا من مشروعه وهل كان يهدف إلى تحرير الكنيسة الشرقية أو بيت المقدس من خلال الخطب والوثائق الأخرى.

وأخيراً أرجو أن تكون هذه الدراسة متكاملة لخطب البابا أربان فى مجمع كليرمون والتى ألقى أولها عند افتتاحه فى الثامن عشر من نوفمبر، ثم الثانية أثناء انعقاده، وأخيراً الخطبة الثالثة التى اختتم بها جلسات المجمع فى ٢٧ من نفس الشهر عام ١٠٩٥م.

والله أسأل السداد والتوفيق ،،

يُنسب أودو Odo إلى شاتيون Châtillon ، وكان والده يوشار Eucher سيداً على لاجيرى Lagery الواقعة بالقرب من ريمز Rhemis. وتلقى أودو تعليمه على يد القديس برونو SL Bruno مؤسس جماعة الكارثوسيان (١٠٣٢ - ١١٠١م). وفى عام ١٠٦٨م أصبح أودو راهباً فى دير كلونى بالقرب من ماكون Mâcon. كما شغل منصب أسقف كارديناك أوستيا Ostia فى فترة بابوية جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥م). كما عمل مندوباً بابوياً فى فرنسا وألمانيا فى عامى ١٠٨٤ - ١٠٨٥م. وشارك فى سياسة البابا جريجورى السابع أثناء صراعه مع الامبراطور هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦م) حيث أيد البابا فى موقفه(١).

شهدت الفترة التى تلت موت البابا جريجورى السابع (١٠٨٥ - ١٠٨٧م) صراعاً على الكرسى البابوى بين البابا فيكتور الثالث والبابا المناوئ كلمنت الثالث. وتدخل فى هذا الصراع عدة قوى مثل بعض الأمراء النورمان وماتيلدا كونتيسة توسكانيا. واستطاع فيكتور الثالث دخول روما وترأس قداساً فى كنيسة القديس بطرس وذلك فى مايو ١٠٨٧م. ولكن الأمر لم يطل به فقد مرض ومات فى ١٦ سبتمبر من نفس العام(٢).

وبعد موت فيكتور الثالث استمر الكرسى البابوى شاغراً لمدة خمسة

---

(١) ولد أودو الذى يُشار إليه أحياناً نسبة إلى شاتيون مسقط رأسه، أو إلى لاجيرى التى كان يحكمها والده. وسوف يلعب أصله الفرنسى دوراً هاماً عند قيامه بالدعوة للحملة الصليبية الأولى التى سوف تنطلق من غالة (فرنسا).

- J.N. Kelly, The Oxford Dictionary of Popes, (Oxford, 1996), p. 158.

(٢) أختار الكاردينالات رئيس الرهبان ديدريوس أوف مونت كاسينو ولكنه انسحب فى البداية إلى ديره ولم يتم تتويجه حتى عام ١٠٨٦م وحمل أسم البابا فيكتور الثالث. وينسب إليه أربعة مؤلفات عن معجزات القديس بندكت ورهبان مونت كاسينو، وصلت ثلاثاً منها. انظر:

- A.E. Mckilliam, A chronicle of the Popes, from Peter to Pius x, (London 1912), pp. 256 - 57.

أشهر. وظل الصراع قائماً بسبب سيطرة أنصار البابا الهاوئ كلمنت الثالث على روما. وفي مارس ١٠٨٨م أجتمع مجمع كنسي في تراكينا Terracina حضره أربعون أسقفاً ورئيس دير بالإضافة إلى عدد من النواب من ألمانيا وتوسكانيا وتم اختيار أودو دي شاتيون لكي يعتلي الكرسي البابوي حاملاً اسم أربان الثاني وذلك في ١٢ مارس ١٠٨٨م(١).

ووصف فولشر الشارتري الجديد بأنه «رجل يستحق الإعجاب بحياته ومسلكه، فقد ناضل بشجاعة وقوة من أجل إعلاء شأن الكنيسة المقدسة أكثر فأكثر»(٢) أما المؤرخ الأنجلو سكسوني أورديك فيتاليس فقد وصف أربان الثاني بأن إله اسرائيل قد اختاره قائداً ضد المسلمين وجعله كبير داود ودفاعاته لمواجهة دمشق، وكان فرنسي الأصل، نبيل المولد، كثير المجاملة، مواطناً من ريمز، وراهباً كلونياً (٣)... ولا شك أن كل هذه الصفات، بالإضافة إلى عمله مع البابا جريجوري السابع – والذي يعد واحداً من أقوى البابوات – قد ترك أثره على خبرة أربان مما جعله أكثر حنكة من أستاذه

---

(١) اجتمع كاردينالات بورتو وتوسكولم وألبانو، وعندما تم سؤالهم وفقاً للعادات والتقاليد المتبعة عند اختيار البابا الجديد صاحوا جميعاً نعم، وتم اختيار أربان الثاني. انظر:

- P.G. Maxwell - Stwart, Chronicle of the Popes, Thames & Hudson (ed.), 1997, pp. 90 - 91.

(٢) Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, 1095, 1127, trans. by France Rita Rayan, ed. H.S. Fink, (Knoxville,1969), p. 61.

وترجد له ترجمة قيمة مع دراسة وافية بعنوان: الوجود الصليبي في الشرق العربي – الإستيطان الصليبي في فلسطين، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥ – ١١٢٧م تأليف فولشيه الشارتري ترجمة ودراسة وتعليق د. قاسم عبده قاسم، الكويت ١٩٩٣.

(٣) The Eeclesiastical History of Orderic Vitalis ed. & trans. Marjorie Chibnall, (Oxford, 1973), IV, 8: 167: in: E. Peters (ed.), The First Crusade, The Chronicle of Fulcher Chartres and other source materials, (Philadelphia, 1998), p.18.

جريجورى. وسرعان ما عمل على معالجة مشاكله الداخلية خاصة فى ظل وجود البابا المناوئ كلمنت الثالث فى روما ومساندته من بعض القوى بها. واستمر أربان يرتحل من مكان إلى آخر، وعقد العديد من المجامع الدينية فى تلك الفترة وذلك لكى يعالج المشاكل التى بدأ سلفه جريجورى السابع فى مواجهتها. وعاد أربان إلى روما فى عام ١٠٩٣م بعد هذه السنوات الخمس وقد اكتسب خبرة سياسية وألم بأحوال العالم الغربى آنذاك(١).

بدأ أربان الثانى بعد عام واحد فقط من اعتلائه العرش البابوى تسوية خلافاته مع بيزنطة والتى كان يحكمها آنذاك الامبراطور الكسيوس الأول كومنين (١٠٨١ - ١١١٨م) فأرسل فى عام ١٠٨٩م سفارة بقيادة روجر رئيس أساقفة راجيو نجحت فى اصلاح العلاقات بين الجانبين كما تم رفع قرار الحرمان الصادر ضد الامبراطور البيزنطى. وبهذه الخطوة نجح أربان فى إيجاد حالة من السلم والصداقة على المستوى الرسمى مما مهد لقيام الحروب الصليبية بعد عدة سنوات(٢). ويربط المؤرخ رالى سميث بين نية البابا فى نفس العام زيارته لغالة وبين تنفيذ مشروعه مما يدل على تفكيره فى استدعاء متطوعين فرنسيين لذلك(٣). غير أن مثل هذه الآراء لا يمكن اثباتها دون وجود ما يدعمها فى المصادر آنذاك.

استمر ارتباط بيزنطة بالغرب الأوروبى نظراً للمشاكل التى كانت تعانى

---

(١) S. Runciman, The Councils of Piacenza and Clermont, in Setton (ed.), A History of the Crusades, vol. I, (Philadelphia 1958), pp. 220 - 224; Peters, op. cit., pp. 17 - 18.

(٢) استمرت المراسلات بين الجانبين بعد عودة السفارة إلى الغرب الأوروبى. وللمزيد انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ٢ جزء، ط. ثانية القاهرة، ١٩٧١، ص ١١٣١؛ قاسم عبده قاسم: الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية - دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩م، دار المعارف، ط. أولى ١٩٨٣، ص ١١١٥.

- S. Runciman, The Eastern Schism, (Oxford, 1955), pp. 61 - 62.

(٣) جوناثان رالى سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣، ص ٢٠.

منها وتهديد الأتراك السلاجقة لأراضيها. واختلفت آراء المؤرخين الحديثين حول ذلك الخطاب المنسوب إلى الكسيوس الأول والذى قيل أنه أرسله إلى روبرت الأول أمير الفلاندرز (١٠٧١ - ١٠٩٣م) طالباً منه المساعدة العسكرية لصد هجمات الأتراك السلاجقة، ثم قيامهم بالزحف باتجاه الأراضى المقدسة لتخليصها من قبضة المسلمين. ومن الثابت تاريخياً وجود علاقة بين الكسيوس وروبرت الأول وذلك عندما مر الأخير فى عام ١٠٨٧ ببيزنطة أثناء عودته من الأراضى المقدسة وطلب منه الكسيوس ارسال قوات مرتزقة قوامها خمسمائة فارس. وبالفعل أوفى بوعده وأرسلها حيث شاركت فى مهاجمة نيقوميديا عام ١٠٨٩م[١]. ومما لا شك فيه أن كل هذه الأحداث كان لها أثرها على فكر البابا أربان الثانى وهو يتنقل ما بين بلد وآخر مما سيكون له الأثر الواضح على دعوته للحملة الصليبية الأولى.

توجه البابا أربان الثانى إلى بيتشانزا فى مارس ١٠٩٥م وعقد هناك مجمعاً دينياً. ويذكر وليم الصورى أنه كان مجمعاً محلياً لكل ايطاليا. وبالإضافة إلى رجال الدين الذين حضروه، فقد جاء اختيار أربان لهذه المدينة علامة لها مغزاها فى صراعه مع الامبراطور هنرى الرابع. فقد كانت المنطقة المحيطة بها تضم العديد من مؤيدى الامبراطور، وبالتالى فإنه يمثل علامة بارزة فى نجاح البابوية. أما عن سبب عقد المجمع فيذكر وليم الصورى أن الحالة المتردية التى وصل إليها بدو آدم وكانت الحافز لإتخاذ تلك الخطوة لرد مغالاتهم[٢]. والواقع أنه تم بحث العديد من مشاكل الكنيسة،

(١) أطلق على هذا الخطاب اسم "Epistula Supria". وللمزيد انظر: جوزيف نسيم يوسف: دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ١٢ - ٢٠؛ حسنين محمد ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٣، ص ٢٠٥ - ٢٠٧؛ رأفت عبد الحميد محمد: قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، دارعين، ١٩٩٨، ص ٧٣ - ٧٤. وأضاف الدكتور رأفت رأياً جديداً فيما يتعلق بهذا الخطاب وتاريخ كتابته.

(٢) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 vols., trans. and annotated by E. Babcock and A. C. Krey, (New

=/=

ومشكلة فيليب الأول ملك فرنسا (١٠٦٠ - ١١٠٨م). وكانت المسألة الأكثر أهمية حضور سفيرين من الامبراطور ألكسيوس سمح لهما البابا بالحضور وعرض طلب المساعدة من الغرب الأوروبي. وأقتنع البابا بضرورة إرسال هذه القوات، وشجع الحاضرين على القسم بمساعدته بكل اخلاص وبأقصى ما عندهم لمقاومة الكفار وإرسال جيش بأكمله إلى الشرق وهو ما لم يكن يرغب فيه ألكسيوس(١).

والتساؤل الهام الذى يفرض نفسه هنا هو هل أثيرت فى مجمع بيتشانزا فكرة الحرب الصليبية؟ اختلفت آراء المؤرخين الحديثين فيما يتعلق بهذا الأمر وتفسير ذلك عدم وجود مادة تاريخية كافية عن هذا المجمع، فلم تتجاوز المعلومات عنه فى مصادر الحملة الأولى سوى بضعة أسطر(٢). ومن

-/-

York, 1943), vol. I, pp. 87 - 88.

وتوجد ترجمة عربية قيمة ودراسة وافية لشخصية وليم الصورى قام بها الدكتور حسن حبشى، صدر فى أربعة أجزاء. انظر: الحروب الصليبية تأليف وليم الصورى ترجمة د. حسن حبشى، القاهرة، ١٩٩١؛ محمد محمد مرسى الشيخ: النظم والحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص ١٦٨ - ١٧٤.

(١) Runciman, The Eastern shcism, pp. 78 - 88.

وتؤكد المؤرخة آنا كومنينا ابنة ألكسيوس الأول أن والدها فوجئ عند سماعه بتحرك هذه الأعداد الضخمة وتخوف من هجومها على القسطنطينية. انظر:

The Aloxiad of Anna Cominna, trans by E.R.A. Sewter (Penguin Books) 1982, pp. 308 - 9.

(٢) يوجد تشابه فى عبارات وليم الصورى التى سبقت حديثه عن مجمع بيتشانزا مع عبارات فولشر الشارترى، غير أن الأخير لم يذكر المجمع، وتجدر الإشارة إلى وجود مصدر هام عن هذا المجمع هو:

Bernold of Constance, Chronicon (MGH, Ss., vol. V)

ولم يستطع الباحث العثور عليه واكتفى بالاعتماد على الإشارات التى وردت فى المراجع الحديثة عنه. ولم يذكر برنولد التبشير بالحملة فى مجمع بيتشانزا أو كليرمون واكتفى بالإشارة إلى مسير القوات الصليبية إلى بيت المقدس عام ١٠٩٦م، انظر:

Runciman, The councils, p. 243.

البديهى أن البابا كان فى ذهنه الإعداد لهذه الحملة منذ عدة سنوات وظل يتحين الفرصة المناسبة لإظهارها. من ناحية أخرى فأن أربان لن يعرض فكرته فى مجمع محلى وسط منطقة تخضع أغلبها لمؤيدى البابوية. ولكنه اكتفى فى هذه المرحلة بالخطوة الأولى وهى إظهار حاجة الإمبراطورية البيزنطية للمساعدة وحصل على الموافقة بتقديم العون لها. ويشير المؤرخ شارانيس P.Charanis اعتماداً على أحد النصوص اليونانية من القرن الثالث عشر الميلادى أن ألكسيوس استغل الشعور السائد فى الغرب الأوروبى عن استيلاء الأتراك السلاجقة على الأراضى المقدسة لا يمكن احتماله(١).

بعد إنتهاء مجمع بيتشانزا توجه البابا أربان عبر جبال الألب إلى غالة. وبدأت ملامح فكرته فى الظهور على أرض الواقع. فقد عقد مجمعين فى فيزيليه وبوى فى يوليو وأغسطس ١٠٩٥م. ثم قام بجولة بين عدد من المدن الفرنسية مثل نيمس Nimes وسان جيل وليون وكلونى وذلك قبل أن يتوجه إلى كليرمون(٢). واستغل البابا فى هذه المرحلة الأحوال السيئة التى يمر بها الغرب الأوروبى من ناحية، والدولة البيزنطية من ناحية أخرى كدعاية تمهيدية لمشروعه. ويحال المؤرخون الحديثون تحركات البابا أربان قبيل عقد مجمع كليرمون وخاصة رحلته إلى مجموعة من الأديرة الكلونية ومقابلته لهؤلاء الرهبان والذين كانت لديهم خبرة طويلة فى محاربة المسلمين فى

---

(١) Runciman, The Councils, p. 244.

وكذلك ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق د. عماد الدين غانم، مجمع الفاتح - ليبيا، ١٩٩٠، ص ٢٠.

(٢) ذكر فولشر الشارترى المفاسد والشرور والجرائم المختلفة فى العالم، كما أشار إلى احتلال الفاطق الداخلية من رومانيا (يقصد الأناضول) وتعرض المسيحيين الشرقيين للغزو من جانب الأتراك السلاجقة وهو ما حدث بعد ما ذكرت ١٠٧١م. ولم يذكر مجمعى فيزيليه وبوى وإنما ذكرهما وليم الصورى دون بقية المصادر الأخرى والذى ينقل عن أحد مصادر الحملة الأولى دون أن يشير إليه. انظر:

Fulcher of Charters, op. cit., pp. 61 - 62' William of Tyre, op. cit., vol. I., pp. 87 - 88.

وعن تحركات البابا فى غالة انظر خريطة رقم (١).

الأندلس. إلى جانب مقابلته لادهيمار المونتيلي Adehmar of Monteil والذى قيل أنه زار الأراضى المقدسة عام ١٠٨٧م[١]، وكذلك ريموند الصنجيلي كونت تولوز والذى يعد واحداً من أكبر الأمراء فى جنوبى غالة. ولا شك أن البابا أربان الثانى استفاد من خبرة هذه الشخصيات الدينية والدنيوية فى مشروعه الذى كان يخطط لإعلانه. وأمدوه بخبراتهم عن الأراضى المقدسة وغالة والدولة البيزنطية وفكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين[٢].

أرسل البابا أربان الثانى مندوبيه إلى المناطق المختلفة للمشاركة فى المجمع الذى دعا له فى كليرمون. وكان البابا آنذاك فى بوى حيث تقابل مع ادهيمار - والذى سوف يختاره البابا مندوباً بابوياً فى كليرمون. ومما لا شك فيه أنه تشاور معه فيما يتعلق بمشروعه للدعوة للحملة الصليبية[٣]. وصل البابا إلى كليرمون فى الرابع عشر من نوفمبر وقد اختمرت فى ذهنه الفكرة التى خطط لها من قبل ولم تكن وليدة اللحظة فى كليرمون. وبدأت أعمال

---

(١) ينحدر أدهيمار من أسرة فالنتينو Valentinois النبيلة، وأشتهر بفروسيته واستخدامه الجيد للسلاح حيث تمكن من الدفاع عن كنيسته ضد هجوم السادة النبلاء، كما خرج فى قوافله الخاصة ضمن قوات ريموند كونت تولوز. انظر:

Runciman, The Councils, p. 249.

(٢) كانت نيمس وناربون وتولوز تابعة لريموند، بالإضافة إلى أنه كان مركيزاً لبروفانس انظر:

Runciman, The Councils, p. 225.

(٣) يضيف المؤرخ ماير دليلاً آخراً على تشاور البابا مع هذه الشخصيات قبل إعلانه فى كليرمون وذلك بسبب أن رسل ريموند وصلوا إلى كليرمون فى أول ديسمبر بعد انتهاء المجمع بثلاثة أيام حاملين موافقة سيدهم على المشاركة فى الحملة ولم يكونوا قد سمعوا بخطبة البابا. ويدلل ماير على ذلك بسابق معرفة ريموند بمشروع البابا. أما المؤرخ زابروف فيذكر أن دعوة البابا للشخصيات غير الدينية للحضور إلى المجمع، بالإضافة إلى العامة دليل آخر على أن هناك أمراً ما سوف يتم الإعلان عنه بعد انتهاء المجمع. للمزيد: ماير: المرجع السابق، ص ١٢٤ زابروف: الصليبيون فى الشرق، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم - موسكو، ١٩٨٦، ص ٤٢ - ٤٣.

المجمع فى الثامن عشر من نوفمبر والذى استمر لمدة أسبوع ناقش خلاله المجتمعون العديد من المسائل الدينية، بالإضافة إلى مسائل أخرى(١).

وفى ختام المجمع ألقى البابا أربان الثانى خطبته التى أوردتها أربعة من المصادر المعاصرة(٢). وأجمع معظم المؤرخين على أن البابا ألقى خطبة واحدة وذلك فى ٢٧ نوفمبر أى فى ختام المجمع. غير أن مونرو Munro خالف هذه الآراء وأشار إلى ثلاث خطب خلال إنعقاد هذا المجمع(٣). وفى البداية فإن الباحث يتفق معه فى هذا الرأى وذلك اعتماداً على تحليل النص الذى أورده فولشر الشارترى. ولكننى اختلف معه فيما يتعلق بفصولها التى أشار إليها من خلال صفحات فولشر الشارترى. ونص الخطبة الأولى التى تمثل افتتاح المجمع فى يوم الثامن عشر من نوفمبر فى الكراسة الأولى لدى فولشر والدليل على ذلك ما ذكره بعد أن أشار إلى أحوال الدولة البيزنطية وتوجه البابا إلى بلاد الغال وإرساله مبعوثيه للدعوة لهذا المجمع، يسجل إلى الآتى:

---

(١) من بين القضايا مشكلة فيليب الأول ملك فرنسا وخيانته الزوجية، بالإضافة إلى مشاكل التقليد العلمانى والمجمولية. انظر: ماير: المرجع السابق، ص ٢٣.

(٢) لا تزال آراء المؤرخين المحدثين مختلفة بشأن تواجد أصحاب هذه المصادر ضمن الحاضرين فى مجمع كليرمون ولكن ما يهمنا أن أياً منهم لم يسجل نصه فى الحال، وإنما من ذاكرتهم فيما بعد. كما أن أياً منهم لم يدّع أن ما كتبه هو النص الكامل للخطب. وهذه المصادر التى اعتمدت عليها المراجع الحديثة هى:

أولاً: نص المؤرخ المجهول لإعمال الحجاج.

ثانياً: نص فولشر الشارترى.

ثالثاً: نص روبرت الراهب (روبرت الريمزى).

رابعاً: نص جيبرت النوجانتى. وبالإضافة إلى ذلك يوجد نص هام اعتمد عليه الباحث هو نص بطرس تيديوده.

(٣) Dana C. Munro, "The Speech of Pope Urban II at Clermont, 1095", American Historical Review (AHR). 11, 1906), pp. 231 - 242.

ويأخذ بهذا الرأى أيضاً المؤرخ ريلى سميث - الحملة الصليبية الأولى، ص ٢٢.

٤- وفى اليوم المحدد - [وبطبيعة الحال يقصد بداية المجمع فى ١٨ نوفمبر] جمعهم أربان حوله، وفى خطاب بليغ أوضح لهم السبب من عقد الاجتماع. وفى نبرات آسفة صادرة عن كنيسة تعانى أخير البابا عن أسباب معاناتها الكبرى. وألقى عظة مدروسة تناول فيها شرور هذه الدنيا حيث أهين فيها الإيمان كما ذكرنا آنفاً[١].

ثم يكمل فولشر حديثه عن هذه الافتتاحية بأن البابا حث الجميع على التمسك بعقيدتهم، وأن يوطدوا فى نفوسهم العزم الأكيد للتغلب على خصال الشر، وأن يقيلوا الكنيسة المقدسة، التى أضعفها الشر، من عثرتها ويعيدوها إلى سالف مجدها. وأنهى فولشر هذه الخطبة وينتقل بعد ذلك إلى عنوان آخر[٢].

وإذا عقدنا مقارنة بين رواية فولشر السابقة وبين ما ذكره المؤرخ المجهول وبطرس تيدبوده نجد أنهما لم يذكرا الخطبتين الثانية والثالثة - كما أضافا العديد من الفقرات من الأناجيل فى نصيهما وهو ما لم يذكره فولشر فى خطبته الأولى[٣].

---

(١) Fulcher of Charters, op. cit., I (4 - 5), pp. 62.

(٢) Ibid.

(٣) لم يذكر أياً من المراجع الحديثة الاعتماد على بطرس تيدبوده. فقد كان الاعتقاد السائد أنه نقل ما كتبه المؤرخ المجهول لأعمال الفرنجة وأضاف إليه فقرات من كتاب ريموندداجيل. ولكن الدراسات الحديثة أثبتت أهميته كمصدر أصيل عن الحملة الأولى وربما كان ضمن الحاضرين فى مجمع كليرمون وذكر جانباً منه بصورة مختصرة، وكتب مؤلفه فى الأراضى المقدسة بعد انتهاء الحملة وقبل عودة جموعها إلى الغرب الأوروبى. للمزيد حسن عبد الوهاب حسين: استيلاء الصليبيين على بيت المقدس (١٠٩٩م) فى ضوء رواية بطرس تيدبوده - دراسة تاريخية مقارنة - مقال فى مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية، الاسكندرية ١٩٩٧، ص ١١ - ١١٤.

Tudebodus, Petrus, Historia Hierosolymitano itinere, trans. J.H. Hill and L.I. Hill, (Philadephia 1974), p. 15.

وتوجد له ترجمة عربية قام بها الدكتور حسين محمد عطية، وعن نص المؤرخ المجهول

-/-

أما الفصل الثانى من الكراسة الأولى فقد عنونه فولشر «مرسوم أربان فى نفس المجمع» وقسمه إلى أربع عشرة فقرة تضمنت الثمانى الأولى نصائح للحاضرين مستعيناً بفقرات من الأناجيل عن العصاة وضرورة تقويمهم وتقديم النصح والارشاد لهم، والعقوبات التى تنتظر المخالفين لأوامر الرب، بالإضافة إلى ضرورة إصلاح أنفسهم حتى يتمكنوا من إصلاح الآخرين[١]. وعلى الأرجح أن هذا هو نص الخطبة الثانية والدليل على ذلك أنه وجهها إلى رجال الدين فى المجمع مخاطباً إياهم «بوزراء الرب»[٢]. ثم أشار فولشر فى الفقرات ٩ - ١٤ إلى جانب من القرارات الصادرة عن المجمع. وفى الفقرة التاسعة أشار فولشر إلى السيمونية واصفاً إياها بأن جذورها تضرب بأطنابها بينهم وحذرهم أن تتحول إلى تجارة[٣]. وفى الفقرة العاشرة أشار

The Speech of Urban: The Gesta Version (Peters ed.), pp. 25 - 26.

وكذلك قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية نصوص ووثائق، الحملة الأولى، القاهرة ١٩٨٥، ص ٧٦. وقارن أيضاً ترجمة د. حسن حبشى: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، القاهرة ١٩٥٨.

(١) Fulcher of Chartres, op. cit., pp. 62 - 65.

(٢) أشار مونرو أن الخطبة الثانية لأربان وردت لدى فولشر فى الفصلين الثانى والثالث. والأصوب أنها فى الفصل الثانى فقط وهو ما سوف أناقشه فى الخطبة الثالثة. انظر:
Munro, Speech of Pope Urban, p. 232, n. 16.

(٣) السيمونية هى دفع رشوة مقابل الحصول على المناصب الكنسية، وتنسب الكلمة إلى سيمون الساحر الذى أراد شراء هبة الخوارق والإتيان بالمعجزات من القديس بطرس فقال له لتكن فضتك معك للهلاك لإنك ظننت أن تشترى مرهبة الله بدارهم. وعرفت لدى الكنيسة الشرقية باسم «الشرطونية». وفى إحدى الوثائق اللاتينية وردت بمصطلح آخر هو Pol-lues Sit أى «فسدت ذمته». كما أطلق عليها فى القرن الثانى عشر الميلادى اسم Lady Purse أى «محفظة النقود» كناية عن دفع الرشوة.
حسن عبد الوهاب: الرشوة فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام منذ الحملة الصليبية الأولى وحتى سقوط بيت المقدس (١٠٩٥ - ١١٨٧م / ٤٨٨ - ٥٨٣ هـ)، ص ٩١ - ٩٧ - ضمن كتاب مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية.

إلى مشكلة التقليد العلمانى والتزامهم بدفع عشر ثمار الأرض[١]. كما فرض اللعنة على كل من يقبض أو يحتجز رجال الدين أو الحجاج والتجار أو ينهب ممتلكاتهم وذلك ضمن الفقرة الحادية عشر. ويحذر بعد ذلك فى الفقرة الثانية عشرة السارق والعقوبة التى ستحلق به إلى الأبد. وطالب الحاضرين بفرض العدالة وذلك لكى يتمكن الناس من السفر بدلاً من حالة الخوف التى سيطرت عليهم بسبب اللصوص وقطاع الطرق[٢]. وتناول فى الفقرة الرابعة عشر الهدنة المعروفة لدى العامة، وضرورة فرضها من جديد والتهديد بفرض عقوبة الحرمان على المخالفين[٣]. وعلق بعض المؤرخين الحديثين على هذا

---

(١) ظهرت مشكلة التقليد العلمانى عندما أصدر جريجورى السابع قراره فى عام ١٠٧٤م بحرمان الملك والسلطات العلمانية من حق تعيين رجال الدين فى مناصبهم مما أدى إلى صراع طويل مع الامبراطورية شغل المرحلة الأولى فى الصراع بينهما، والذى كان فترة بابوية أربان الثانى أحد مراحله ودخل فى صراع مع الامبراطور هنرى الرابع وعدد من ملوك أوروبا فى عصره. وانتهت هذه المشكلة فى عام ١١٢٢م باتفاقية ورمز فى عهد هنرى الخامس والبابا كالكستس الثانى. انظر:

O.J. Thatcher, A Source book for Mediaeval History, (New York, 1905), pp. 134, 135, 162.

وكذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى (التاريخ السياسى)، ص ٣٤٧ - ٣٤٨؛ محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص ٣٦٣ - ٣٧٢.

(٢) بالإضافة إلى ما ذكره البابا أربان فى خطبته، كانت هدنة الرب المعلنة فى أستقية كولن عام ١٠٨٣ م قد حرمت الاعتداء على المسافرين أو القيام بالسرقات واستخدام الأسلحة بكافة أنواعها. كما أن قرارات المجمع تضمنت العديد من الشروط أو القرارات المتعلقة بتأمين المشاركين فى الحملة. انظر:

The Truce of God Proclaimed in the Diocese of Cologne, (Peters. ed.), pp. 38 - 41; Roger of Wendover, Flowers of History. Comprising the History off England from the Descent of the Saxons to A.D. 1235, trans from latin by J.A. Giles, 2 vols. (London, 1848) vol. I, 374 - 75.

(٣) يرجع الاهتمام بفرض السلام إلى عام ٩٨٩ فى مجمع شارو Charroux، واستمرت المجامع التالية الاهتمام به حيث ظهرت صيغة جديدة للقسم عليه فى عام ١٠١٦م، كما

-/-

البند الأخير حيث ذكروا أن البابا رغب في فرض السلام في أوروبا وكذلك بين المسيحيين عامة من خلال فرض هدنة الرب[١]. وفي حقيقة الأمر فإن البابا أربان هدف إلى استغلال هذه الهدنة لصالح دعوته وذلك بوقف الحروب بين السادة الاقطاعيين ونقلها إلى خارج أوروبا ضد المسلمين في الأراضي المقدسة.

وينتقل فولشر الشارتري إلى الفصل الثالث وعنوانه «دعوة أربان إلى القيام برحلة حج إلى بيت المقدس»[٢] ويعلق مترجم كتاب فولشر بأن هذا العنوان لا يتناسب مع محتوى الفصل وذلك لعدم ذكر بيت المقدس أو الضريح المقدس أو الأراضي المقدسة، بينما يتناول إنقاذ بيزنطة كهدف للحملة الصليبية. وفي الواقع فإن الفصل يشير إلى إنقاذ المسيحيين الشرقيين، وفي نفس الوقت فإنه يذكر بطريقة غير مباشرة في الفقرة الخامسة القتال ضد المسلمين في الأراضي المقدسة[٣]. ومن ناحية أخرى يذهب المؤرخ مونرو بأن هذا الفصل الثالث يمثل الخطبة الثانية أيضاً، والأصوب أنه يتناول الخطبة الثالثة والدليل على ذلك أنه يبدأها بتوجيه البابا الشكر للحاضرين على مراعاة قراراته ومراسيمه التي أصدرها في هذا المجمع وهو ما ورد في

-/-

كان لدور الرهبان الكلونيين دور هام في تطويقه والتأكيد عليه. وتم تحديد أربعة أيام في الأسبوع لوقف الحرب، ثم أيام أخرى على مدار العام. وللمزيد انظر:

The Truce of God Proclaimed at the Councils of Clermont (Peters. ed.), p. 41;

وتجدر الإشارة إلى أن بطرس ناشر الوثيقة ذكر أن هدنة الرب لم تكن جزءاً من الدعوة الصليبية، ولكن الإشارات الواردة في الخطبة الثانية لأربان تناقض ذلك الرأي. وكذلك انظر: قاسم عبده قاسم: الخليفة الأبديراتورية، ص ١١٢؛ زابروف: الصليبيون، ص ١٤٦؛ ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٤.

(١) زابروف: الصليبيون، ص ٤٦.

(٢) Fulcher of Charters, op. cit., pp. 65 - 67.

(٣) Ibid., p. 65, n.1.

الخطبة الثانية. ثم يوجه حديثه للفرسان والمشاة أغنياء وفقراء للمسارعة بانقاذ السكان المسيحيين قبل فوات الأوان(١).

على أي حال، تمثل هذه الخطبة ما ورد في معظم المراجع الحديثة على أنها الخطبة الوحيدة التي ألقاها أربان في أوڤرنى خارج الكنيسة حيث استمع إليه جموع الحاضرين سواء من رجال الدين أو عامة الناس الذين توافدوا على المدينة. واختلفت نصوص الخطبة الثالثة بسبب تركيز كل مؤرخ على نقاط معينة بسبب كتابتها من ذاكرتهم بعد عدة سنوات من عقد المجمع، وكذلك لأختلاف أسلوب كل مؤرخ عن الآخر(٢). واعتمد الباحث على نص الخطبة لدى فولشر الشارتري – لعدم اكتمال نص كل المؤرخ المجهول وبطرس تيدبوده من ناحية، ولتسجيله نصها قبل المؤرخين الثلاثة الآخرين(٣).

---

(١) يشير مونرو أن الخطبة الثالثة في الفصل الرابع لدى فولشر. وبمراجعة هذا الفصل لا يوجد فيه سوى اختيار لدهيمار مندوباً بابوياً بعد الخطبة، وبعض الأمور التنظيمية الأخرى في الإعداد للحملة ولا تدخل في نطاق الخطبة.

(٢) عن آراء المؤرخين المحدثين بشأن الخطب انظر: ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٣ – ١٢٤؛ رالى سميث: الحملة الأولى، ص ١٢٠؛ قاسم عبده: الدلفية الايديولوجية، ص ١٠٩ – ١١٠؛ Munro, Speech, p. 232 - 33' Runciman, The Counells, pp. 220, 239 - 41.

(٣) اختلفت الآراء حول بداية تسجيل فولشر لتاريخه. وعلى الأرجح أن ذلك كان بين عامي ١١٠٠ – ١١٠١م ثم أعاد تنقيح ما كتبه في عامي ١١٠٥ – ١١٠٦م. واعتمدت المصادر التي أوردت الخطبة على أعمال الحجاج – والذي لم يصلنا من خطب البابا لديه سوى الخطبة الأولى في افتتاح المجمع. ويذكر روبرت الراهب أن راهباً يدعى برنارد أطلق على نسخة منه لكي يعيد كتابتها بأسلوب أنيق دون أن يذكر هل أورد الخطب الثلاث أم لا. والمزيد: مقدمة فولشر الشارتري في ترجمة الدكتور قاسم عبده، ص ٤٦؛ وكما تجدر الإشارة إلى أن كلاً من د. سعيد عاشور ود. حسنين ربيع أوردا نص الخطب نقلاً عن فولشر الشارتري انظر: Fifty Documents in Medieval History, compiled by Dr. Said Ashor & Dr. Hassanein Rabie, (Second. Ed. Cairo, 1987), pp. 77 - 79.

وبعد مقارنة نصوص الخطبة لدى المصادر الأربعة الرئيسية يمكن أن نوضح الجوانب التالية:

أولاً: أجمعت المصادر الأربعة على ضرورة مساعدة الغربيين لإخوانهم المسيحيين في الشرق، وأشارت إلى ما تعرضت له «مملكة اليونانيين» و «القسطنطينية» من جانب جنس الفرس (الأتراك). كما ذكرت ضرورة حماية الكنائس الشرقية وما سيعود على الغربيين من السعادة لذلك(١).

ثانياً: فيما يتعلق بالحديث عن جنس الأتراك نجد أن فولشر يصفهم بالخسة وحذر من معاقبة الرب في حال التقاعس عن مواجهتهم. أما روبرت الراهب فكان أكثر المصادر حدة في لهجته في الحديث عنهم وإدعاء قيامهم بأعمال القتل والذبح وصنوف التعذيب الأخرى للمسيحيين الشرقيين إضافة إلى اغتصاب النساء. بينما اتهمهم بلدريك بالأعتداء على الكنائس الشرقية واستهانتهم بالدين المسيحي. أما جيبرت فلم يتناول هذا الجانب في نصه عن خطبة البابا(٢).

(١) أشار بلدريك إلى اليونانيين بطريقة غير مباشرة عندما أوضح الخطر الذي تتعرض له الكنائس الشرقية ومن بينها كنيسة القسطنطينية. وهذا يخالف ما ذكره رانسيمان أن بلدريك لم يشر إلى اليونانيين.

The Speech of Urban: The Version of Baldric of Dol, (Peters), pp. 29 - 33; Runciman, The Councils, p. 241.

وكذلك قاسم عبده: نصوص وثائق، ص ٨٥ - ٨٩.

(٢) يعد روبرت الراهب أكثر المصادر تفصيلاً عن اتهام الأتراك السلاجقة بأعمال الذبح والتعذيب الأخرى. ولا شك أن ذلك كان له هدفه من أجل إثارة حماس الغربيين ضد المسلمين في الوقت الذي سجل فيه روبرت كتابه حوالي عام ١١٠٧م. وكان برهند أمير أنطاكية آنذاك في الغرب الأوروبي من أجل الإعداد لحملة جديدة. انظر:

The Speech of Urban: The Version of Robert of Rheims, (Peters.) pp. 26 - 29; Fulcher of Charters, op. cit., pp. 192 - 93.

وكذلك قاسم عبده: نصوص وثائق، ص ص ٧٧ - ٨٠.

ثالثاً: ذكر فولشر أن البابا دعا إلى وقف الحرب ضد المؤمنين (يقصد محاربة بعضهم البعض) والتحول لمحاربة الكفار (يقصد المسلمين حسب اعتقاده الباطل) كما طالب اللصوص بأن يتحولوا إلى جند للمسيح، والمرتزقة للحصول على المكافأة الخالدة بدلاً من حفنة النقود الفضية. ويتناول بلدريك نفس المعنى عن محاربة الفرسان بعضهم البعض، وكذلك اللصوص وأعمالهم التي يجب أن تتحول إلى محاربة المسلمين بدلاً من إخوانهم المسيحيين، ومن يخالف ذلك سوف تحل به اللعنة الأبدية، بينما الآخرون سوف يحصلون على الشهادة. أما روبرت الراهب فقد ذكر ذلك بصورة مختصرة حيث دعاهم لنبذ الخلافات ثم التوجه للضريح المقدس(١).

رابعاً: اتفق فولشر وبلدريك على دعوة البابا أربان للقساوسة بأن يقوموا بحث الناس سواء من الفرسان أو المشاة وغيرهم للمشاركة في تلك الحرب المقدسة. وأن يكون دورهم من خلال كنائسهم للتبشير بالرحلة إلى بيت المقدس بروح صافية وخالصة. أما المصدران الآخران فلم يشيرا إلى هذه النقطة، وتجدر الإشارة إلى وجود وثائق بعد انتهاء المجمع تنظم دور رجال الدين في الحملة الصليبية(٢).

---

(١) حاول جريجوري السابع الربط بين تحويل القتلة واللصوص إلى محاربين، وإنقاذ المسيحيون الشرقيين ولكنه فشل في ذلك. أما الربط بين فكرة الحج والحرب فقد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً، ولم يكن بابوات القرن الحادي عشر هم أول من دعا إلى استخدام تلك الحرب، بل نجد البابا ليو الرابع (٨٤٧ - ٨٥٥) ويوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢) وذلك في الصراع ضد المسلمين والفيكنج. انظر:

Runciman, the Councils, p. 243; The Pilgrmages to Palestine Befor 1095, pp. 68 - 80 [in Setton (ed.)] vol. I.; John Gilchrist, The Papacy and War against the Saracens, 795 - 1216; International History Review, 10, 1988, pp. 174 - 197.

(٢) ذكر أربان الثاني في خطابه المؤرخ في ٧ أكتوبر ١٠٩٦ إلى رهبان دير فالومبروسا تنظيم دور رجال الدين في الحملة والعقوبة المفروضة على المخالفين منهم لذلك انظر:

Urban's Letter to the Monks of the Congregation of Vallombrosa, (Peters.) pp. 44 - 45.

خامساً: ذكر فولشر أن البابا أمر بعدم تأجيل خروج المشاركين فى الحملة وأن عليهم تدبر أحوالهم، وأشار روبرت الراهب إلى تحذير أربان من التردد للخروج سواء بسبب الخوف على ذويهم أو أملاكهم حيث فرض حمايته عليهم. أما بلدريك فيشير إلى نفس المعنى من حيث طمأنة البابا للمشاركين على أملاكهم وزوجاتهم حتى عودتهم. ويضيف روبرت الراهب بأن البابا منع خروج الكهول والضعاف والنساء بدون أزواجهن أو أشقائهن أو ممن يقومون بحمايتهن مع الحملة، لأن هؤلاء جميعاً يشكلون عائقاً(١).

سادساً: وعد البابا - كما يذكر فولشر - المشاركين فى الحملة بغفران ذنوبهم. وانفرد فولشر بالإشارة إلى هذا الجانب دون بقية النصوص. ويبدو أن هذا كان من بين قرارات المجمع وليس ضمن نص خطبة البابا(٢).

---

(١) ذكر جيمس برونديج اعتماداً على روبرت الراهب بأن البابا منع النساء المشاركة فى الحملة الصليبية وبمراجعة ما ذكره روبرت نجد أن المنع لم يكن مطلقاً لأنه اشترط المنع على النساء اللاتى لا يرافقهن أزواجهن أو أشقاؤهن أو حرسهن. انظر:
J. A. Brundage, Prostitution, Miscegenation and sexual Purity in the first crusade, in crusade and settlement, pp. 57 - 65.
وتوجد ترجمة للمقال فى حسن عبد الوهاب: مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى، ص ١٦٩ - ١٨٨.

(٢) قدم المؤرخ ماير تحليلاً مسهباً حول العلاقة بين الصليبية وصكوك الغفران. وذكرت وثيقة من البابا أربان أن من يذهب من أجل تحرير كنيسة الرب يجب أن يكون دافعه الإخلاص فقط، وليس من أجل الحصول على المال أو الشرف. انظر: ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٥ - ٦٣، ومن الوثيقة: Brundage, op. cit., p. 57 The Privilage of Urban to the Pilgrims (Peters.) p. 37.
وتجدر الإشارة إلى أن المؤرخ سومرفيل حصر تسعاً وعشرين قراراً عن مجمع كليرمون، وقدم المؤرخ هيستاند دراسة أخرى للقرار الثلاثين. انظر:
R. Hiestand, Les canons de Clermont et d'Antioch sur l'organisation ecclésiastique des etats croisés: authentiques ou faux? in Autourr de la prremiére croisade, ed. M. Balard, (Paris, 1996), pp. 29 - 37.

سابعاً: انفرد روبرت الراهب أن البابا أشار إلى قصص الأسلاف العظام مثل شارلمان وابنه لويس وغيرهما من الملوك الذين دمروا ممالك الوثنيين ومدوا حدود الكنيسة المقدسة داخلها(١).

ثامناً: تناولت المصادر الثلاثة – فيما عدا فولشر – أحوال الأراضي المقدسة بصفة عامة والقدس بصفة خاصة. ومنها من تحدث عن المعاناة التي يلقاها الحجاج في طريقهم سواء أكانوا من الأغنياء أو الفقراء. وقدم جيبرت صورة فيها مبالغة شديدة عن وسائل التفتيش التي يتعرضون لها من جانب المسلمين. كما عرض المؤرخون الثلاثة وصفاً لأحوال بيت المقدس وألصقوا بالمسلمين العديد من التهم بشأن الأماكن المقدسة وأعمال التخريب التي حدثت لها(٢). كما انفرد بلدريك بالإشارة إلى كنيسة أنطاكية دون بقية المصادر الأخرى.

تاسعاً: أورد جيبرت قصة المسيح الدجال وحاول توظيفها لإستيلاء المسيحيين

---

(١) ارتبط شرلمان بأسطورة شهيرة ذكرت ذهابه إلى فلسطين، كما دارت كثير من الروايات عن دوره في الحروب ضد المسلمين في الأندلس وعلاقته بالخليفة العباسي هارون الرشيد وعن هذه الأسطورة ودور شرلمان انظر: جوزيف نسيم يوسف: أنشودة رولان وقيمتها التاريخية وما أثير حولها من جدل ونقاش – ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، ١، ١٩٨٢، ص ٧٧ – ١١٠٤؛ قاسم عبده: الخلفية الأيديولوجية، ص ٤٨ – ٤٩.

(٢) تعرضت الكنائس في الأراضي المقدسة لبعض العوامل التي أدت إلى تخريبها في ظل السيادة الإسلامية عليها. ومنها ما حدث على يد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله والذي أعاد عمارتها، وكذلك بعض الزلازل. ويعترف الرحالة الروسي دانيال الراهب بما كانت عليه كنيسة القيامة من حالة رائعة عندما زارها عام ١١٠٦ – ١١٠٧م. أما معاناة الحجاج فإن إعدادهم التي زادت عن الآلاف أدت إلى صعوبة توفير المؤن والإمدادات. وفيما يتعلق بالضرائب فقد فرضت بيزنطة نفسها ضرائب عليهم أثناء مرورهم بأراضيها وفي الضريح المقدس أيضاً مما أدى إلى شكوى الباباوية من ذلك. وللمزيد: رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة ترجمة د. سعيد البيشاوي، ودارد اسماعيل، عمان ١٩٩٢، ص ٥٢ – ٥٣، قاسم عبده: الخلفية الأيديولوجية، ص ٣١ وما بعدها. Runciman, The Pilgrimage, p. 68 ff.

على الأراضى المقدسة، كما أشار إلى ما أسماه معجزة النار المقدسة عند الضريح المقدس وحول الكنيسة(١).

عاشراً: انفرد روبرت الراهب بالحديث عن ربط البابا أربان بين الحالة السيئة التى كانت تمر بها أوروبا وعدم كفاية الطعام والثروة لأهلها، وأن الحروب بينهم هى التى أدت إلى ذلك، وبالتالى فقد دعاهم إلى الذهاب إلى تلك البلاد التى تفيض لبنا وعسلاً. أما بلدريك فقد أشار إلى منحهم أملاك العدو(٢). ومن ثم فإن البابا أدرك ضرورة الرعود المادية لتحريك همم من يرغب فى ذلك من الفئات العديدة التى ستخرج للمشاركة فى الحملة.

على أى حال فقد تركت خطب البابا - وخاصة الثالثة التى وجهها إلى تلك الجموع التى احتشدت فى أوفرينى - أثرها الهائل عليهم. ويذكر بطرس تيدبوده أن الحاضرين رددوا «لقد ألتقينا فى إرادة واحدة» أما روبرت الراهب فيشير إلى أنهم قاطعوا البابا أثناء خطبته وصاحوا «أنها مشيئة الرب» Deus lo vott.(٤) وأصبح ذلك شعار المشاركين فى الحملة، وصيحتهم عند الحرب ضد المسلمين. ومن ناحية أخرى سارع البابا لتنظيم أمر الحملة وذلك بغية المحافظة على مشروعه وحتى لا يفلت الأمر من بين يديه وسط حماسة تلك

---

(١) أنهم جيبرت المسلمين بعدم الإيمان بهذه المعجزة، ويحرف فولشر نفسه بعدم حدوثها عام ١١٠١م. وكان الصليبيون يصيحون عند رؤيتها kyrie eleison «يارب ارحمنا».
رحلة الحاج دانيال، الملحق الخامس، ص ١٦٥ - ١٦٧؛
Fulcher off Charters, op. cit., pp. 151 - 52.

(٢) The Speech of Urban: The Version of Robert of Rheims, (Peters.), pp. 26 - 29; cf. also: Runciman, The Councils, pp. 244 - 45.
وكذلك: قاسم عبده: الأيديولوجية، ص ٩٢ - ٩٧؛ زابروف: الصليبيون، ص ١٥ - ١٦.

(٣) Tudebodus, op. cit., pp. 15 - 16.

(٤) The Speech of Urban,: The Version of Robert of Rheims, (Peters.), p. 28. cf. also: Runciman, the councils, p. 239.

الجموع المندفعة للخروج. وأمر البابا المشاركين بخياطة الصليب على ملابسهم حيث أصبح شعاراً لهم. واختلفت المصادر فى وصفها لهذا الأمر فيذكر المؤرخ المجهول وتيدبوده أن المشاركين قاموا بخياطة هذه الصلبان على ملابسهم عند اكتفاهم اليمنى(١). بينما يشير فولشر أن البابا أمر بوضع الصلبان على أكتاف المعاطف بمجرد القسم على المشاركة(٢). ولكن جيبرت أورد عبارة عامة فيقول أن البابا أمر بوضع الصليب على أى نوع من قماش القمصان أو العباءات(٣). وخلافاً لبقية المصادر الأخرى يذكر روبرت الراهب بأن وضع علامة الصليب كانت تتم على غطاء الرأس أو الصدر عندما ينذر الشخص الخروج للحملة. وفى طريق عودته يضع علامة الصليب على ظهر ملابسه بين كتفيه(٤).

ومن بين الأمور الهامة التى أكد عليها أربان عدم التقاعس عن الخروج لمن نذر ذلك وأقسم عليه وذلك لأى سبب من الأسباب. كما نظم أمر خروج رجال الدين ودورهم فى الحملة. وعلى الرغم من أن روبرت الراهب أشار إلى ذلك ضمن خطبة البابا، إلا أنه من المرجح أن ذلك كان ضمن ما سارع به أربان عقب استجابة جموع العامة لدعوته دون انتظار للموعد الذى حدده

---

(١) The Speech of Urban: The Gesta version, (Peters.),pp. 25 - 26; Tdebodus, op. cit., p. 16.

(٢) Fulcher of Chartres, op. cit., p. 68.
ويصف فولشر الصليب بأنه مصنوع من الحرير والقماش المذهب ومواد أخرى. وربما يدل هذا على وجوده فى كليرمون.

(٣) Speech of Urban, The Version of Guibert of Nogent, (Peters), pp. 37.
وكذلك: قاسم عبده: نصوص ووثائق، ص ٨٨ - ٨٩.

(٤) Speech of Urban, The Version of Guibert of Nogent, (Peters), pp. 28 - 29.
وكذلك: قاسم عبده: نصوص ووثائق، ص ٧٩ - ٨٠.

لخروج الصليبية[١].

أما فيما يتعلق بتنظيم أمور الحملة النظامية، فقد بدأ البابا الإعداد لذلك سواء ما يتعلق بالقيادة والتمويل وخط السير وغير ذلك من الجوانب التنظيمية. وعهد بقيادة الحملة إلى ادهيمار لى بوى الذى صاحب البابا عندما كان فى بوى واتجه إلى كليرمون. ويذكر بلدريك أن ادهيمار كان من بين الحاضرين وطلب من البابا مباركته قبل خروجه، وقام أربان بمنحه السلطة على الجميع كنائب بابوى فى قيادة الحملة[٢]. ويتضح هنا سياسة البابا فى إضفاء الطابع الدينى على الحملة عندما عهد بقيادتها إلى رجل دين[٣]. وفى رسالة البابا إلى المؤمنين فى الفلاندرز والمؤرخة فى ديسمبر ١٠٩٥م أشار إلى اختياره لادهيمار قائداً للحملة وأمر المشاركين بطاعته أثناء قيادته لهم، كما حدد يوم عيد صعود القديسة مريم Assumption of the Blessed Mary (والذى يوافق ١٥ أغسطس) موعداً لخروج الحملة[٤].

تركت خطب اربان الثلاث السابقة، وخاصة الخطبة الأخيرة آثاراً مدوية على جموع الحاضرين. فقد سارعت فئات عديدة للخروج دون انتظار للموعد الذى حدده البابا فى خريف العام التالى. وقبل أن نتابع نشاط البابا فى غالة نتوقف عند مسألة على جانب كبير من الأهمية اختلفت آراء

(١) تجدر الإشارة أن وضع الصليب صار أمراً مفروضاً على كل من يقرر الخروج للمشاركة فى الحملة كما ذكر ستيفن رانسيمان أساقفة ماينز عام ١٠٩٩م الظن:
Runciman, The Counciels, p. 247.

(٢) أجمعت المصادر على وصف ادهيمار بالشجاعة والدبلوماسية، وكانت له قراءته الخاصة وأشارت المراجع إلى أنه كان قائداً للحملة (dux) ومندوباً بابوياً Legate واستخدمت بعض المصادر العربية الاسم الأجنبى محرفاً فأطلقت عليه الكاف والنون وصعته الكلمات انظر: ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق د. حسنين محمد ربيع، ومراجعة د. سعيد عاشور، جـ٤، القاهرة ١٩٧٢، ص ٩٨، هـ (٢).
Runciman, The Councils, pp. 249 50.

(٣) Runciman, The Councils, p. 249.

(٤) Peters (ed.), op. cit., p. 42.

المؤرخين الحديثين بشأنها. ونقصد بذلك هل كان البابا يهدف إلى تحرير الكنيسة الشرقية أم التوجه إلى بيت المقدس؟ ويؤيد كل من ماير Mayer وردولف هيستاند R. Hiestand الرأى الخاص بأن القدس لم ترد ضمن نص فولشر الشارتري، كما أن رسالتين للبابا إلى الفلمنك في نهاية عام ١٠٩٥م لم تشيرا إلى القدس إلا هامشياً. ويدعم هيستاند ذلك بقوله أنه ليس من المؤكد في المصادر أن أربان قد تناول القدس كهدف سياسى وحربى لمشروعه(١). أما المؤرخ ريلى سميث فيرى أن هدف أربان كان تخليص الكنائس الشرقية بصفة عامة وكنيسة بيت المقدس بصفة خاصة. ويذكر أنه من الصعب قبول أن هدف أربان تحرير الكنائس الشرقية كهدف أساسى وذلك لأن البابا لا يستطيع تجاهل وضع القدس وتأثيرها(٢).

واعتمد هؤلاء المؤرخون الحديثون على نصوص المؤرخين الأربعة لخطب البابا أربان. وعلى الرغم من أن فولشر لم يذكر القدس صراحة إلا أنه أشار إليها ضمناً، بينما أفاضت المصادر الثلاثة الأخرى فى الحديث عنها ومعاناتها والأماكن المقدسة بها، كما تحدثت عن الدفاع عن الكنيسة الشرقية أيضاً(٣). ومن جانب آخر استند هولاء على مجموعة من الوثائق تمثلت فى خطابات من البابا، وبعض قرارات مجمع كليرمون(٤). ومن بين الإشارات

---

(١) ماير: المرجع السابق، ص ص ٢٥ - ١٢٧.

Hiestand, op. cit., p. 32.

وتجدر الإشارة إلى أن ماير أورد آراء مؤرخين آخرين مثل أردمان Erdmann وكودرى Kowdery بشأن هدف أربان فيما يتعلق بالقدس. وترجد دراسة نقدية لأبحاث أردمان انظر:

John Gilchricht, The Erdmann Thesis and the canon law, 1083 - 1141, in crusade and Settlement, pp. 37 - 45.

(٢) الحملة الصليبية الأولى، ص ص ٢٢ - ٢٨.

(٣) انظر ما سبق عن تحليل نصوص خطب البابا.

(٤) نشر Peters هذه النصوص، وتوجد ترجمة قيمة لبعضاً منها فى كتاب د. قاسم عبده: الحروب الصليبية (نصوص ووثائق)، ص ٨٩ - ٩٨.

Peters (ed.), op. cit., pp. 37 - 46.

التى وردت عن القدس ضمن هذه الوثائق ما ذكره البابا فى خطابه إلى المخلصين فى الفلاندرز (ديسمبر ١٠٩٥) عن خضوع القدس لعبودية لا تحتمل، وكذلك الكنائس الشرقية مما دفعه لزيارة غالة[١]. أما أحدث المصادر الوثائقية التى تم اكتشافها وقدمت معلومات جديدة عن رحلة البابا فى دير القدس فلورنت أوف سامور[٢] حيث أمضى حوالى أسبوع فى أواخر يناير وحتى أوائل فبراير ١٠٩٥م. وذكرت الوثيقة بأن البابا وعظ السكان المحليين للقيام بالرحلة إلى بيت المقدس عن طريق القسطنطينية ولإعادة بناء الأماكن المقدسة التى خربها الوثنيين. وتلفت الوثيقة الانتباه إلى أمر هام وهو الطريقة التى اتبعها البابا فى دعوته فقد ألقى ما أسمته الوثيقة بـ Publice وهى العظات العامة فى الكنائس المحلية، أما العظة الخاصة Privatim فهى الطريقة التى اتبعها مع الأفراد وخاصة النبلاء لكى يدعموا حملته[٣]. وفى مقال لسيتليا ثين ناقشت فيه أهمية بيت المقدس كهدف للحملة الأولى أثبتت اهتمام الغربيين بالقدس سواء للحج أو للتكفير عن الذنوب، ثم أوردت أنشودة ترجع إلى القرن الحادى عشر عن الضريح المقدس، وكان الصليبيون يرددونها أثناء الحملة. ثم أشارت إلى وثيقة تعود إلى مارس ١٠٩٦ – حيث كان البابا يقوم بالدعوة للحملة فى أحد أديرة بواتييه – إلى أن البابا كان تحت أمرته العديد من الرجال من النبلاء من جميع البلاد سيرحلون إلى الضريح المقدس[٤]. وفى أثناء وجود البابا فى

---

(١) Urban's Letter to the Faithful in Flanders, p. 42.

(٢) يقع على بعد ٤٥ ك.م جنوب شرق أنجرز Angers فى غالة.

(٣) George T. Beech, Urban II, The Abbey of Saint-Florent of Saumur, and the first crusade, in: Autour de la Première croisade, pp. 57 - 58, 61 - 62.

(٤) تقول الكلمات: باسم الرب نسير فى طريقنا، ونرحل على بركته، قدرة الرب والضريح المقدس تساعدنا.

Sylvia Schein, Jérusalem: objectif originel de la premiére croisade, pp. 121 - 23.

أنجو ولنت (١٠ - ١٤ فبراير ١٠٩٦م) تذكر حولية فولك أوف لى رشين أن البابا أثناء زيارته لانجرز Angers حث شعبنا على الذهاب إلى بيت المقدس لمطاردة الوثنيين الذين احتلوها وجميع الأراضى المسيحية حتى القسطنطينية[١]. وفى خطابه إلى أعوانه فى بولونيا المؤرخ فى سبتمبر ١٠٩٦، يشير أيضاً إلى القدس وسعادة البابا لسماعه برغبة البعض الذهاب إليها ثم يتناول المزايا التى سيحصلون عليها[٢]. وفى أكتوبر ١٠٩٦ - أى بعد رحيل الحملة - تستمر الإشارة إلى القدس وذلك فى خطاب البابا إلى رهبان جماعة فالومبروسا[٣].

وعلى الرغم من أن المؤرخ ماير يذكر أن القدس لم تعد تذكر بعد وصول الحملة إلى أنطاكية فى مايو ١٠٩٨م، إلا أنه يوجد خطاب مؤرخ فى سبتمبر ١٠٩٨م يذكر القدس حيث يدعون البابا للحاق بهم لكى يقودهم إلى تحرير الضريح المقدس[٤]. ومن ناحية أخرى تجاهلت هذه المراجع الحديثة العديد من الإشارات التى وردت عن الحملة الشعبية سواء تلك التى خرجت بقيادة بطرس الناسك وبداية رحلته إلى القدس، أو القسم الذى كان بقيادة أميكو وأن طريقه كان إلى القدس. وتلك الأسطورة التى ذكرت أن هذا القسم كانت تقوده أوزة وعنزة ملهمتان تعرفان طريقهما إلى بيت المقدس[٥]!!

ولم يقتصر الأمر على هذه المصادر اللاتينية فحسب، بل أن نجد مؤرخاً مثل ابن الأثير يربط ما بين فكرة الحروب الصليبية وبين الحرب التى جرت

(١) Urban in Anjou, Lent, 1096: The Chronicle of Fulk le Réchin, (Peters.), pp. 42 - 44.

(٢) Urban's letter to His Supportres in Bologna (Peters), p. 44.

(٣) Urban's Letter to the Monks of Vallombrosa, (Peters.), p. 44.

(٤) ماير: المرجع السابق، ص ٢٧، وعن الخطاب أعلاه:
Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088 - 1100 ed. H. Hagenmayer,(Innsbruck, 1901) no. 12, p. 154 (in: S. Schein, op. cit., p. 123).

(٥) لنظر نصوص تلك الحملة لدى: قاسم عبده: نصوص ووثائق، ص ص ٩٧ - ١٣١، زابروف: المرجع السابق، ص ص ٥٥ - ٥٦.

ضد المسلمين فى أسبانيا. ويذكر ابن الأثير بأن صاحب فكرة التوجه إلى بيت المقدس هو روجر ملك صقلية الذى خشى على أملاكه من الغربيين فنصحهم بفتح بيت المقدس «تخلصونه من أيديهم (يقصد المسلمين) ويكون لكم الفخر»[١]. وسواء أكان لروجر دور فى ذلك أم لا، إلا أن رواية ابن الأثير تؤكد إلى جانب الروايات السابقة على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس كان هدف تلك الحملة الصليبية الأولى. ومن جانب آخر فإن البابا أربان بدء الفكرة بانقاذ بيزنطة من هجمات الأتراك السلاجقة وهو ما طرحه فى بيتشانزا فى مارس ١٠٩٥م. ثم عندما انتقل إلى غالة وجد أن بيت المقدس أكثر اقناعاً كى تكون هدفاً لحملته وخاصة بين فئات العامة فواصل دعايته مستغلاً شغفهم وحبهم لهذه المدينة فى نجاح دعوته.

مما لا شك فيه أن تلك الفترة الهامة التى أعقبت انتهاء مجمع كليرمون وحتى تحرك الحملة الصليبية الأولى والتى أمضاها البابا أربان فى غالة حيث ظل يرتحل من مكان إلى آخر تركت أثرها المباشر على الإعداد لتلك الحملة الصليبية الأولى. وأمدتنا مادتها المصدرية بالكثير من المعلومات الهامة عن خطب البابا أربان وفسرت العديد من جوانب هذا المشروع الذى يعد مشروعاً بابوياً خالصاً وقع على كاهل أربان تنفيذه وتحمل تبعاته.

عبر البابا جبال الألب مرة أخرى عائداً إلى ايطاليا وفى لوكا Lucca توقفت الجيوش المشاركة فى الحملة للحصول على مباركة البابا ومنهم من اتجه عبر الموانئ الواقعة على الأدرياتى، بينما سلكت الغالبية الطريق البرى عبر بيزنطة. ويقول رانسيمان بأن ملخر تلك الجيوش وهى فى طريقها لإنقاذ الضريح المقدس يؤكد على أن خطة البابا المعدة بعناية تؤكد على أنها فى

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ١٠ أجزاء، بيروت ١٩٨٧، جـ ٩، ص ١٣. وأورد ذلك ضمن حوادث عام ٤٨٤ هـ (١٠٩١م). وهذه تضيف بحاجة للمناقشة على اعتبار أنها إشارة هامة قبل إعلان أربان لفكرته فى كليرمون بحوالى أربع سنوات فهل وصلت إليه وأسّرها فى نفسه؟!

طريقها الصحيح[١]. وبعد رحلة من المعاناة استمرت حوالى ثلاث سنوات استطاعت تلك القوات الصليبية الإستيلاء على بيت المقدس بعد مذابح مروعة داخل تلك المدينة المقدسة وذلك فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م. ولم يهنأ البابا بهذا الانتصار طويلاً فقد مات فى ٢٩ يوليو ١٠٩٩م لكى يخلف وراءه تركة مثقلة بالعداء استمرت ما يقرب من مائتى عام.

(١) Runciman, The Councils, pp. 250 - 51.

الخاتمة:

من خلال العرض السابق لخطب البابا أربان الثلاث ودراسة مختلف نصوصها التى وردت لدى المصادر الخمسة الرئيسية، والمقارنة التى تمت بينها يتضح للباحث أهمية الاعتماد على نص خطبة المؤرخ فولشر الشارترى باعتباره أقرب من سجل نصوصها من ناحية، وكذلك لاكتمال أغلب أجزاء الخطب الثلاث لديه. وهذا ما أشار إليه المؤرخ مونرو منذ ١٩٠٦م، ثم أخذ بهذا الرأى المؤرخ ريلى سميث. وكلاهما يعد من أبرز المتخصصين فى دراسة الحروب الصليبية. ومن ناحية أخرى اختلف الباحث مع ما أورده مونرو من حيث نص كل خطبة لدى فولشر وأثبت أن الخطبة الأولى فى الفصل الأول، والثانية فى الفصل الثانى والثالثة فى الفصل الثالث وذلك فى الكراسة الأولى التى تركها فولشر ضمن كتابه.

كما تناول الباحث قضية هامة أخرى تتعلق بآراء المؤرخين الحديثين عن دوافع البابا أربان الثانى من خلال خطبه وهل كان يهدف إلى تحرير الكنيسة الشرقية أو كنيسة بيت المقدس. وفى ضوء دراسة الوثائق المنشورة، وتلك التى تم نشرها حديثاً، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الخطابات المعاصرة وكذلك المصادر التاريخية اللاتينية، بل أيضاً نص هام للمؤرخ ابن الأثير - وهو ما أشار إليه أيضاً الدكتور سعيد عاشور - استفاد الباحث من هذه الوثائق جميعاً فى تبنى وجهة النظر الخاصة بأن هدف أربان الثانى كان هو تحرير بيت المقدس - على حد زعمه - أما ما يتعلق بتحرير الكنيسة الشرقية فقد كان ذلك ضمن خطابه فى مجمع بيتشانزا فى مارس ١٠٩٥م، ثم كرر ذلك فى خطبته الافتتاحية فى كليرمون فى الثامن عشر من نوفمبر من نفس العام.

وأخيراً فقد اختتمت البحث بتناول تحركات البابا أربان فى غالة حيث

استمرت رحلته ما يقرب من ثماني أشهر نجح خلالها في تنظيم أمر دعوته للحملة الصليبية سواء ما يتعلق بالإمداد والتموين وقيادة الحملة وتمويلها ومختلف الجوانب التي أسهمت في نجاحها. واعتمد الباحث في ذلك على أحدث ما نشر من وثائق تتعلق بهذه الفترة الهامة والتي تفسر كثيراً مما ورد في خطب البابا أربان الثاني.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

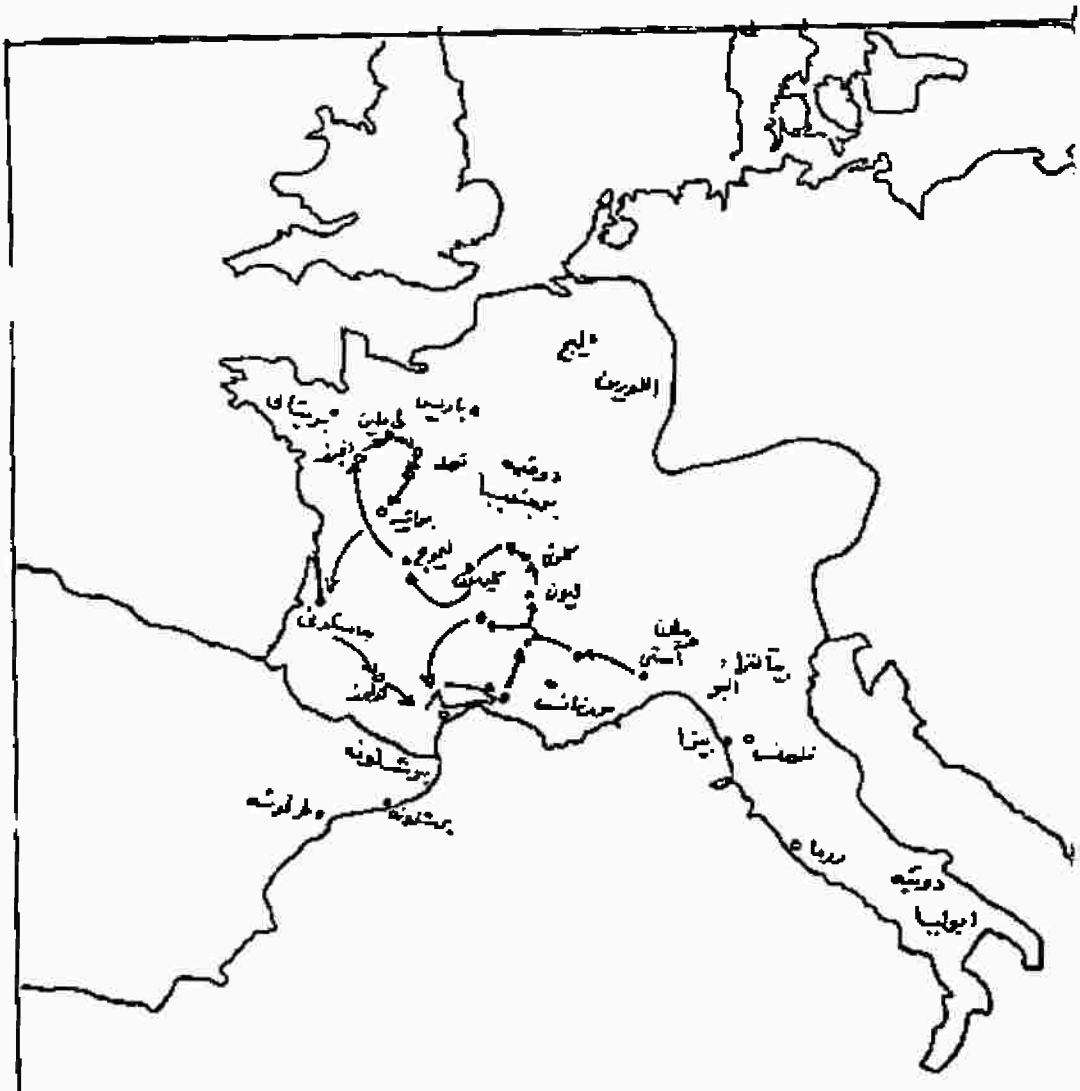

رحلة البابا أربان الثاني في مالـــة